من خصائص اللغة العربية ...

الأستاذ أحمد عبد الرحيم السايح - جامع الأزهر

خصائص ومميزات

للغة العربية خصائص ومميزات يزت بها غيرها لا تدانيها فيها لغة من اللغات فانت تستطيع ان تصنع من مفرداتها المانوسة قطعا ، ما تسحر به الالباب وتاخذ بالافهام وتتالق بالعقول فى عالم السمو والسحر والابداع .

وعناية العربية بجمال الالفاظ وحسنها ، لا لذات الالفاظ . وانما اهتماما من اللغة العربية بالمعنى . وذلك حتى يقع القول من نفس السامع الموقع المرجو الذى يهيىء له الحالة النفسية التى تحفزه الى الحركة والعمل وتبعث به الى المقصود فى ثوب مفوف ووسام لامع جذاب اخاذ ساحر .

1) الدلالة المعنوية

ولقد ثبت من المقارنة بين اللغات ان **اللغة العربية من اكثر اللغات دلالة معنوية** بل ان الكثير من الفاظ العربية قد فقد الدلالة الحسية .

قال جورجي زيدان : فالفعل «قضى» معناه «حكم» والاصل فيه القطع الحسي والفعل «عقل» معناه «فهم» وهو مأخوذ من عقل الناقة اي ربطها والفعل ادرك ، الاصل فيه البلوغ الحسي فيقال : فلان ادرك القطار اي لحقه ؛ والفعل «بلغ» وضع اصلا للدلالة على الوصول الحسي فى المكان والزمان، بل ان الاصل فى معنى الفصاحة قولهم : فصح اللبن اذا ذهبت رغوته ، ثم قيل : فصح بمعنى وضح و «الراي» اصله من «راى» اي شهد بعينه

وفى العربية ابنية وصيغ وقوالب دالة على معان وصفات واحوال . فما كان على «فعلان» (بالتحريك) دل على الحركة والاضطراب كالنزوان ، والغليان والضربان والهيجان . وما كان على «فعلان» (بسكون العين) دل على صفات تقع من احوال كالعطشان والغرثان والشبعان والريان والغضبان ، وما كان على «افعل» دل على صفات بالالوان نحو : ابيض واحمر واسود واصفر واخضر، وكذلك العيوب تكون على افعل نحو ازرق واحول واعور واقرع واقطع واعرج واخيف وتكون الادواء على « فعال » كالصداع والزكام والسعال والخناق والكباد .

والاصوات اكثرها على هذا كالصراخ والنباح والضباح والرغاء والثغاء والخوار ، وفصل ناخر منها على «فعيل» كالضجيج والهرير والهدير والصهيل والنهيق والزئير والغضيب والنعيق والنعيب والخرير والصرير . وحكاية الاصوات على «فعللة» كالصرصرة والقرقرة والغرغرة والقعقعة والخشخشة واطعمة العرب على «فعيلة» كالسخينة والنفيتة والمريرة والنقيعة والعقيقة ، واكثر الادوية على « فعول » كاللعوق والسعوط والوجور واللدود والذرور والنطول ، واكثر العادات فى الاستكثار على « مفعال » نحو مطعان ومطعام ومضراب ومضياف ومكثار ومهذار وامراة معطار ومذكار ومئناث ومئشام،

وصيغ الافعال واوزانها في اللغة العربية عامل من عوامل ثروة اللغة وقدرتها على الدلالة على فروق وظلال تضاف الى المعنى الاصلي ، دون زيادة في اللفظ ومع الاحتفاظ بطابع التركيز والدقة قال الثعالبي في الاكثر الاغلب (فعل) يكون بمعنى التكثير كقوله عز ذكره « وغلقت الابواب » وقوله ، يذبحون ابناءكم» و (فعل) يكون بمعنى (افعل) نحو خبر واخبر وكرم واكرم ونزل وانزل ويكون مضافا له نحو افرط اذا جاوز الحد وفرط اذا قصر قال الشاعر:

لا خير في الافراط والتفريط
كلاهما عندي من التخليط

وقلت في كتاب المبهج : اياك والافراط المل ، والتفريط المخل .

و (افعل) يكون بمعنى فعل نحو اسقى وسقى وامحضه الود ومحضه ، وقد يتضادان نحو نشط العقدة اذا شدها وانشطها اذا حلها .

(وفاعل) يكون بين اثنين نحو : ضاربه وبارزه وخاصمه وحاربه وقاتله ويكون بمعنى فعل كقوله عز وجل ، قاتلهم الله اي قتلهم .

(وتفاعل) يكون بين اثنين وبين الجماعة نحو تجادلا وتناظرا وتحاكما ، ويكون من واحد نحو تراءى له ويكون بمعنى اظهر نحو : تغافل وتجاهل وتمارض وتساكر اذا اظهر غفلة وجهلا ومرضا وسكرا وليس بغافل ولا جاهل ولا مريض ولا سكران .

(وتفعل) يكون بمعنى فعل نحو تخلصه اذا خلصه كما قال الشاعر :

تخلصني من غفلة الغي منعما
وكنت زمانا في ضمان اساره

وكما قال عمرو بن كلثوم :

تهددنا واوعدنا رويدا
متى كنا لامك مقتوينا ؟

ويكون بمعنى التكلف نحو تشجع وتجلد وتحكم ويكون لاخذ الشيء نحو : تادب وتفقه وتعلم ويكون تفعل بمعنى: فعل نحو تعلم بمعنى اعلم كما قال القطامي :

تعلم ان بعض الشر خير
وان لهذه الغمم انقشاعا

(واستفعل) يكون بمعنى التكلف نحو استعظم اي تعظم واستكبر اي تكبر ويكون استفعل بمعنى الاستدعاء والطلب نحو استطعم واستسقى واستوهب ويكون بمعنى فعل نحو استقر اي قر ويكون بمعنى صار ، نحو استنوق الجمل واستنسر البغاث .

(وافتعل) يكون بمعنى فعل نحو اشتوى اي شوى واقتنى اي قنى اي كسب، ويكون لحدوث صفة نحو : افتقر وافتتن واما انفعل فهو فعل المطاوعة نحو : كسرته فانكسر وجبرته فانجبر وقلبته فانقلب قال ابن جني : « فاذا رايت العرب اصلحوا الفاظها ـ العربية ـ وحموا حواشيها وهذبوها وصقلوا غروبها وارهفوها فلا ترين ان العناية اذ ذاك انما هي بالالفاظ ؛ بل هي عندنا خدمة للمعاني وتنويه وتشريف ونظير ذلك اصلاح الوعاء وتحسينه وتركيته وتقديسه وانما المبغى بذلك منه الاحتياط لنموعى عليه وجواره بما يعطر بنشره ولا يعر جوهره كما قد تجد من المعاني الفاخرة السامية ما يهجنه ويغض منه كدرة لفظه وسوء العبارة عنه .

وذلك ان العرب كما تعنى بالفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها وتلاحظ احكامها بالشعر تارة وبالخطب اخرى وبالاسجاع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها . فان **المعاني اقوى عندها واكرم عليها واعظم قدرا في نفوسها** فاول ذلك عنايتها بالفاظها فانها لما كانت عنوان معانيها وطريقا الى اظهار اغراضها ومراميها اصلحوها ورتبوها وبالغوا في تحبيرها وتحسينها ليكون ذلك اوقع لها في السمع واذهب بها في الدلالة على القصد .

فكان العرب انما تحلي الفاظها وتدبجها وتشيها وتزخرفها عناية بالمعاني التي وراءها وتوصلا بها الى ادراك مطالبها وقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ان من الشعر لحكمة وان من البيان لسحرا فاذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يعتقد هذا في الفاظ هؤلاء القوم التي جعلت مصائد واشراكا للقلوب وسببا وسلما الى تحصيل المطلوب، عرف بذلك ان الالفاظ خدم للمعاني والمخدوم لا شك اشرف من الخادم والاخبار في التلطف بمذوبة الالفاظ الى قضاء الحوائج اكثر من ان يؤتى عليها او يجشم للحال تعب بها .

واعلم انه لما كانت **الالفاظ للمعاني ازمة وعليها ادلة واليها موصلة** ، وعلى المراد منها محصلة عنيت

العرب بها فأولتها صالحا من تثقيفها واصلاحها (1). وشيء ءاخر يجعل اللغة العربية اكثر مرونة في الواقع من غيرها . وهو انها اكثر **اللغات قبولا للاشتقاق . والاشتقاق باب واسع تستطيع به اللغة ان تؤدي معاني الحضارة** والاشتقاق في العربية يقوم بدور لا يستهان به في تنويع المعنى الاصلي وتلوينه اذ يكسبه خواص مختلفة بين طبع وتطبع ومبالغة وتعدية ومطاوعة ومشاركة ومبادلة مما لا يتيسر التعبير عنه في اللغات الآرية مثلا الا بالفاظ خاصة ذات معان مستقلة ، وصيغ الالفاظ العربية تفرق تفرقة واضحة بين الجواني والبراني وبين ما هو حركة في النفس وما هو حركة في الجوارح . العربية تفرق مثلا بين الكبر والتكبر والعلم والتعلم والفقه والتفقه .

وقد التفت المستشرق الفرنسي كرادوفو الى هذه الظاهرة فلم يسعه الا ان ينوه بها في كتابه عن الغزالي فقال « لقد ميز الغزالي بين الكبر الداخلي والكبر الخارجي . الداخلي هو استعداد في النفس والخارجي ناتج من افعال الجوارح واللفظ الفرنسي الذي يدل على معنى الكبر هو Orgueil اما التكبر فاولى ان يكون مرادفه الفرنسي Superbe .

ولاحظ كارا دوفو ايضا ان هذه **الفروق المعنوية الدقيقة التي تحملها الفاظ اللغة العربية** ليس من اليسور نقلها في لفظ واحد الى اللغات الاخرى . وخلص من هذه الملاحظة الى التنويه بما **تنطوي عليه العربية من قدرة ذاتية على التحليل الفلسفي العميق** ما دام ان احداث تغيير طفيف في بنية اللفظ العربي يسمح لتلك اللغة بأن تميز بين الحالة النفسية وبين العادة البدنية التي تطابقها . ولا نزاع في ان **منهج اللغة العربية الفريدة في الاشتقاق قد زودها بذخيرة من المعاني لا يسهل اداؤها في اللغات الاخرى في نطاق التركيب الجواني الذي هو شيمة الاسلوب العربي الاصيل** وقد لاحظ السيوطي هذه الزيادة في المعنى المشترك حين عرف الاشتقاق بانه « اخذ صيغة من اخرى مع اتفاقهما معنى ومادة وهيئة تركيب ليدل بالثانية على معنى الاصل بزيادة مفيدة لاجلها اختلفا حروفا او هيئة .

وجلي : **ان هذه الطريقة في توليد الالفاظ بعضها من بعض تجعل من اللغة جسما حيا تتوالد اجزاؤه ويتصل بعضها ببعض باواصر قوية واضحة ، وتغني عن عدد ضخم من المفردات المفككة المنعزلة التي كان لابد منها لو عدم الاشتقاق ، وان هذا الارتباط بين الفاظ العربية** الذي يقوم على ثبات عناصر مادية ظاهرة وهي الحروف او الاصوات الثلاثة . وثبات قدر من المعنى سواء كان ماديا ظاهرة او مختفيا مستترا . **خصيصة عظيمة من خصائص هذه اللغة** تشعر متعلمها بما بين الفاظها من صلات حية تسمح لنا بالقول بأن ارتباطها حيوي وان طريقتها حيوية توليدية وليست آلية جامدة .

قال الدكتور عثمان امين : واذا اردنا مثلا على ثروة العربية بهذا الضرب من الاشتقاق والتصريف فلننظر الى كلام رجل من المشتغلين بالعلوم الطبيعية. فهو يرى في كلمة مثل « صهر » اي اذاب الجسم بالنار انه يستفاد لتأدية هذا المعنى بكلمات دقيقة من حالات الجسم تخالف غيرها من الحالات فنقول انصهر واستصهر وتصاهر ومنصهر ومصهور ، وفي العربية منهجا ءاخر مخالفا للغات الاخرى فان العربية **تدل بالحركات على المعاني المختلفة** . من غير ان تكون تلك الحركات اثرا لمقطع او بقية من اداة فيكون ذلك في وسط الكلمة واولها وءاخرها فهم يفرقون بالحركة بين اسم الفاعل واسم المفعول في مثل مكرم ومكرم وبين فعل المعلوم وفعل المجهول نحو : كتب وكتب وبين الفعل والمصدر في مثل علم وعلم وبين الوصف والمصدر في مثل فرح وفرح وبين المفرد والجمع في مثل اسد واسد وبين الفعل والفعل في مثل قدم وقدم وبين الاسم والاسم في مثل : سحور وسحور .

2 ـ العربية وفلسفة الاعراب

اللغة العربية : من اللغات العريقة المنبت الواسعة الافق اتسعت فاحاطت بأبعد انطلاقات الفكر وارتفعت حتى صعدت ارقى اختلاجات النفس .

ولقد زادتها مرونتها تبلورا وتفاعلا ونماء وقدرة على النهوض بتبعاتها الحضارية عبر التطور الذي تعيشه الانسانية في مسيرتها .

وكان لها عبر الزمن الاصالة الجاهدة المولدة المعطاءة . والميزات المطواعة المتطورة .

(1) الخصائص لابن جني الجزء الاول ص 225 ـ 228 . طبعة الهلال ـ مصر

وانك لتحس هذا في كلماتهـــا التـــي تمثـــل خطرات النفوس ونبضات القلوب وكل كلمـــة لها في الجملة مكان يحس بها المتكلم او تحس بها الكلمـــة نفسها .

ولهذا صارت ــ بفعل عوامل مختلفـــة ــ لغـــة حية بارزة ، ذات دلالة ووضوح ، وزادها متانة وابانة وافصاحا عن المعاني : الاعراب .

والعربية لغة تتوخى الايضاح والاصالة والاعراب احدى وسائلها لتحقيق هذه الغاية : غاية الايضـــاح والافصاح عن صلات الكلمات العربية بعضها ببعـــض وعن نظم تكوين الجمل بالحالات المختلفة لها .

وفي اللغات الخالية من الاعراب يعتمد اهـــل اللغة على القرائن وعلى اضافة كلمات الى الجملة لفهم المقصود من المعاني ولكن الاعتماد على القرائن ربمـــا لا يطرد ــ كما يقـــول صـــاحب الطـــراز ــ فاوجبت العربية التفريق بين الفاعل والمفعول والا وقع اللبس والابهـــام .

والاعراب : مصدر اعربت عن الشيء اذا اوضحت عنه . ويقال : فلان معرب عما في نفسه اي مبين له وموضح عنه ومنه : عربت الفرس تعريبا اذا بزغته . وذلك بأن تنسف اسفل حافره .

ومعناه : انه قد بان بذلك ما كان خفيا من امره لظهوره الى مرءاة العين بعد ما كان مستورا وبذلك تعرف حاله اصلب هو ام رخـــو واصحيـــح هـــو ام سقيم وغير ذلك .

واصل هذا كله قولهم : « العرب » وذلك لما يعزى اليه من الفصاحـــة والاعـــراب والبيان ومنه قولهم في الحديث « الثيب تعرب عن نفسها »

والمعرب صاحب الخيل العـــراب وعليه قـــول الشاعر :

ويصهل في مثل جوف الطـــوى
صهيـــلا تبيـــن للمعـــــرب

اي اذا سمع صاحب الخيل العراب صوته علم انه عربي ومنه : العروبة . والعروبة الجمعة وذلـــك ان يوم الجمعة اظهر امرا من بقية الاسبوع لما فيه من التاهب لها والتوجه اليها وقوة الاشعار بها قال الشاعر العربي القديم :

يوالم رهطا للعروبة صيمـــا

ولما كانت معاني السمين مختلفة كان الاعـــراب الدال عليها مختلفا ايضا . وكانه من قولهم : «عربت معدته» اي فسدت . كانها استحالت من حال الى حال ، كاستحالة الاعراب من صورة الى صورة.

الاعراب اذن مطلب العقل في اللغة ولذلك يرى بعض الباحثين والدراسين من علماء مقارنة اللغـــات ان **الاعراب ارقى ما وصلت اليه اللغات في الوضوح والابانة وهذه المرتبة قد بلغتها العربية الفصحى ، ولا يشاركها فيه من اللغـــات القديمـــة الا اليونانيـــة واللاتينية ، ولا يشاركها فيه من اللغات الحديثة الا الالمانية .**

اما اللغات الارية الحديثة ــ وتشمل معظم لغات اوربا الحديثة ــ فقد خلت من حالات الاعراب ولا مميز فيها بين الرفع والنصب والجر ، وانما يقوم مقامها الحاق ادوات خاصة بذلك معظمها من حروف الجر او بتقديم الالفاظ وتاخيرها مما لا يخرج عن الوضع الخارجي في المكان ، هذا في حين ان اللغة العربيـــة قد استلزمت من اول الامر ــ ما دام الاعراب مرعيا ــ وان يكون الفكر الواعي محددا للوضع الخارجي وان يكون النظر الى المعنى هو المبرر للتقديم والتاخير وتاكيد الاسناد ، وغيـــر ذلـــك الا تـــرى انـــك اذا سمعت : اكرم سعيد اباه ، وشكر سعيدا ابوه ، علمت برفع احدهما ونصب الاخر ، الفاعل من المفعول ولو كان الكلام نوعا واحدا لاستبهم احدهما من صاحبه .

فبالاعراب يعرف الخبر من الانشاء والمفعـــول من الفاعل وبه يتميز المضاف من المنعوت والمتعجب من الاستفهام والنعت من الحال الى غير ذلك .

وبالجملة : فتمير اغراض المتكلم عند السماع يكفي فيه الاعراب فالاعراب في مثل (ما احسن زيد) بفتح نون احسن وضم دال زيد كانت « ما » نافيـــة وانت تريد ان زيدا لم يحصل منه احسان .

واذا قلت (ما احسن زيدا) بفتح النون والدال كانت « ما » تعجبية وانت تريد ان شيئا عجيبا جعل زيدا حسنا .

واذا قلت (ما احسن زيد) بضم النون وكسر الدال ، كانت « ما » استفهامية وانت تريد معرفـــة اي شيء حسن في زيد علمه ام ادبه ام اخلاقه .. الخ ..

وقد يفرقون بين المعاني بالحركات وغيرها فبالحركة يقولون : «مفتح»للالة بكسر الميم وفتح التاء و«مفتح» بفتح الميم لموضع الفتح ، وللفتح نفسه .

وقد يفرقون بين المعاني بغير الحركات كالتمييز بتاء التانيث وعدمها فيقولون امراة طاهر بدون التاء اذا ارادوا طاهرة من الحيض لان الرجل لا يشاركها فيه واذا ارادو طهارتها من العيوب الخلقية قالوا امراة طاهرة لان الرجل يشاركها فيها فيحتاجون الى التمييز بينهما ومثله امراة قاعد اذا اثقلها الحبل وقاعدة من القعود اي جالسة لان الرجل يشاركها فيه فيقال : رجل قاعد . ويروى ان رجلا دخل على امير المؤمنين علي ـ كرم الله وجهه ـ فقال له من غير اعراب : « قتل الناس عثمان » فقال له امير المؤمنين « بين الفاعل من المفعول رض الله فاك » .

وبنت ابي الاسود الدؤلي وقفت مرة تشاهد السماء وتتعجب لجمالها . فقالت لابيها « ما احسن السماء » فقال ابوها : نجومها ، فقالت « ما عن هذا اسال وانما انا اتعجب » فقال لها اذن قولي « ما احسن السماء » وافتحي فاك . وسمع ابو الاسود قارئا يقرأ قوله تعالى «ان الله بريء من المشركين ورسوله» بكسر اللام في رسوله فاكبر ابو الاسود ذلك وقال : عز وجه الله ان يبرأ من رسوله .

وكان هذا سببا في وضع علامات الاعراب للمصحف بامر زياد .

ويروي ابن قتيبة أن رجلا من الخوارج مدح رئيسهم شبيبا بن يزيد الخارجي بقصيدة في بيت منها :

ومنا سويد والبطين وقعنب
ومنا امير المؤمنين شبيب

فاخذه عبد الملك بن مروان وساله وهو يحاكمه عن هذا البيت فقال لم اقل هذا بل قلت : ومنا امير المؤمنين شبيب بفتح الراء في امير اي يا امير المؤمنين فامر بتخلية سبيله .

وقد اشار ابن خلدون في مقدمته الى الاعراب عند العرب فقال : ان كلامهم اي العرب ـ واسع ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الاعراب والابانة الا ترى ان قولهم : زيد جاءني مغاير لقولهم : جاءني زيد . من قبل ان المتقدم منهما هو الاهم عند المتكلم .

فمن قال : زيد جاءني افاد ان اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند وكذلك التعبير عن اجزاء الجملة بما يناسب المقام من موصول او مبهم او معرفة وكذا تاكيد الاسناد على الجملة كقولهم : زيد قائم وان زيدا قائم وان زيدا لقائم متغايرة كلها في الادلة وان استوت من طريق الاعراب فان الاول العاري عن التاكيد انما يفيد الخالي الذهن والثاني المؤكد يفيد المتردد والثالث يفيد المنكر .

وكثير من كواكب الاستشراق وعلماء اللغات، نوهوا بخصيصة الاعراب في العربية قال العلامة « بركلمان » عند حديثه عن لغة الشعر العربي :

لقد تميزت لغة الشعر العربي هذه بثروة عظيمة من الصور النحوية وبلغت من حيث دقة التعبير عن علامات الاعراب والنحو ذروة التطور في اللغات السامية .

وقال البحاثة : « لوي مسينيون » في حين **ان اللغة السريانية قد نقلت اجروميتها عن اللغة اليونانية نقلا صرفا ، استطاعت لغة الضاد ان تشيد بناء ضخما من الاعراب يضع امام الابصار مشهدا فلسفيا ذا روعة واصالة .**

فاللغة العربية لها من الخصائص لافهام المعاني الدقيقة والمعاني الثانوية التي تصل الى نهاية الابداع وكمال الصنع ، ما يملك على السامع مشاعره ويستخدم حواسه ويدفعه حيث يشاء .

والاعراب في ذاته فلسفة لغوية تضع كل شيء في مكانه اللائم له وتعطي كل ذي حق حقه .

فلا ابهام ولا لبس ولا غموض ولا تعقيد . بل وضوح وابانة وهدى وافصاح .

3) العربية والحركة

اللغة العربية من اعرق اللغات منبتا واكثرها رسوخا واقواها جلادة واشدها بنيانا وفي ظل الحضارة الاسلامية صارت ابعد اللغات مدى واوسعها افقا واقدرها على النهوض بتبعاتها الحضارية عبر التطور الدائم الذي تعيشه الانسانية .

واستطاعت العربية في رحاب عالمية الاسلام ان تتسع لتحيط بابعد انطلاقات الفكر وترتفع حتى تصعد ارقى اختلاجات النفس .

ولقد زادتها مرونتها وقدرتها على التفوق تباورا وتفاعلا ونماء واعطتها طاقة خلاقة وحياة مدهشة .

وكان لحركيتها التي امتازت بها : الاصالة الجاهدة المولدة المعطاءة والميزات المطواعة المتطورة ولم تعد حروفا وقوالب فارغة يملأها الفكر فتحمله ، بل انها بعض الانسان المسلم بعض كينونته ، هو ينبوعها وهي مجراه وقلنا انها بعض الانسان المسلم لانها لغة القرءان الكريم وانك لتجد الاحساس الدقيق متمثلا في مفرداتها ويتجلى هذا في التركيب ، فكل كلمة لها في الجملة مكان يحس بها المتكلم وان شئت بعبارة اخرى فقل : تحس بها الكلمة نفسها .

وتكاد تمثل كلماتها خطرات النفوس وتصور الفاظها مشاهد الطبيعة تكاد تتجلى معانيها في اجراس الالفاظ وتتمثل في نبرات الحروف كانما كلماتها نبضات القلوب ورحيق الحياة ومشاعل القوة .

فليس هناك معنى من المعاني ولا فكر من الافكار ولا عاطفة من العواطف ولا نظرية من النظريات تعجز اللغة العربية ، عن تصويرها بالاحرف والكلمات تصويرا صحيحا هي المقاطع بارز القسمات .

والحياة في العربية حياة خلاقة مبدعة ذات عبقرية خاصة وكلماتها تنعم بهذه الحياة في الحين الذي نجد الكلمات في سائر اللغات ادوات جامدة لا يعرف فيها معنى الحياة الا بعد ان تجتمع منها الى بعضها وتؤلف عبارة .

واذا كانت بقية اللغات ادوات للتعبير متى بلغتها فقد بلغت الغاية القصوى وانتهت مهمتها فان اللغة العربية لا تكتفي بهذه الغاية بل هي تريد ان يكون التعبير جميلا وتريد ان يمتد هدفها الى اكثر من ذلك فيتحول الى فكرة مستمرة للجمال والذوق والذكاء فكرة تندفع بصورة تلقائية وتتوالد من نفسها لانها في تفاعلها وتطورها كانها كائن حي يذهب ويجيء وتموج فيه العواطف والاحاسيس ، وكلماتها الحية ذات الاصول الثابتة تتفرع منها المعاني المتقاربة فمثلا: النون والباء اذا اجتمعتا كانتا الجذر في مختلف معاني البروز انظر الى فروع هذا الجذر فتجد ان معنى :

نبت : برز من الارض ، ونبط : اخرج ماء البئر

ونبع : خرج من العين ، ونبغ : خرج وظهر

الى ءاخر ما هناك من الكلمات التي تتشابه في الاصل والعربية في عبقريتها لم تكتف بهذا المنطق الذي هو في حد ذاته قاعدة بل عمدت الى اكثر من ذلك وها هي ظاهرة من ظواهر حياتها حتى في الكلمات فهي تتساهل اشمل ما يكون التساهل حيال من يتكلمها كما يفعل الرجل الشهم ازاء صاحبه تماما ، خذ مثلا كلمة « غضروف » ان اجتماع الغين والضاد يثقل احيانا على اللفظ وتناسق الحروف في الكلمة يجعلها سريعة الانفصال عن اخواتها في العبارة وفي السرعة ، فماذا تفعل العربية لتتلافى هذا الامر انها تتساهل معك وتقول لك اذا لم تستطع ان تلفظ كلمة « غضروف » فاللفظ «فرضوف» فانها هي نفسها ، فهي لا تتمنت الى الدرجة التي تشعر بالبغض لها ، بل هي تاخذك بالحسنى .

وكان اللغة العربية بهذه الحركية والحياة تريد ان تدفع بابناء الاسلام الى المجد دفعا وتصل بهم في ظل القرءان الكريم الى ذروة ما قدر لهم من نجاح وعز وسؤدد ، وتغرس فيهم حب العمل والحركة والاعتماد على ان لا امل لهم الا في انفسهم وتبعث في قلوبهم النشاط وتقشع السكون والاستكانة فلا ينبغي ان تكون لغة القرءان متحركة حية واهلها جامدون ساكنون .

ولقد اعرب عن الحياة في اللغة العربية العالم النحوي ابو الفتوح عثمان بن جني فوضح القول عن الكلام واللغو وانهما يدلان على الحركة والسرعة والقوة .

وذكر ان معنى « ق و ل » اين وجدت وكيف وقعت من تقدم بعض حروفها على بعض وتاخره عنه انما هو للخفوف والحركة وجهات تراكيبها الست مستعملة كلها لم يهمل شيء منها وهي :

ق و ل ، ق ل و ، و ق ل ، و ل ق ، ل ق و ، ل و ق .

الاصل الاول : « ق و ل » وهو القول وذلك ان الفم واللسان يخفان له ويقلقان ويمدلان به وهو بضد السكوت الذي هو داعية الى السكون الا ترى ان الابتداء لما كان ءاخذا في القول لم يكن الحرف المبدوء به الا متحركا ولما كان الانتهاء ءاخذا في السكوت لم يكن الحرف الموقوف عليه الا ساكنا .

الاصل الثاني : « ق ل و » منه القلو حمار الوحش وذلك لخفته واسراعه قال العجاج :

تواضح التقريب قلوا مغلجا

ومنه قولهم : قلوت البسر والسويق فهما مقلوان وذلك ان الشيء اذا قلي جف وخف وكان اسرع الى الحركة والطف قال :

قد عجبت مني ومن بعيليا
لما راتني خلقا مقلوليا

اي خفيفا للكبر طائشا

قال :

وسرب كعين الرمل عوج الى الصبا
بواعف بالحادي حور المدامع

سمعن غناء بعد ما نمن نومة
من الليل فاقلولين فوق المضاجع

اي خففن لذكره فزال عنهن نومهن واستلقاؤهن على الارض .

الاصل الثالث : « و ق ل » منه الوقل للوعل ، وذلك لحركته وقالوا : توقل في الجبل اذا صعد فيه وذلك لا يكون الا مع الحركة والاعتمال .

قال ابن مقبل:

عودا احم القرا ازمولة وقلا
ياتي تراث ابيه يتبع القذفا

الرابع : « و ل ق » قالوا ولق يلق اذا اسرع قال :

جاءت به عنس من الشام تلق

اي تخف وتسرع وقريء «اذ تلقونه بالسنتكم» اي تخفون وتسرعون .

الخامس : « ل و ق » جاء في الحديث لا آكل من الطعام الا مالوق لي .

اي ما خدم واعملت اليد في تحريكه وتلبيقه حتى يطمئن وتضام جهاته ومنه اللوقة للزبدة وذلك لخفتها واسراع حركتها .

السادس : « ل ق و » منه اللقوة للعقاب ، قيل لها ذلك لخفتها وسرعة طيرانها قال :

كاني بفتخاء الجناحين لقوة
دفوف من العقبان طاطات شملال

ومنه اللقوة في الوجه والتقاؤهما : ان الوجه اضطرب شكله فكانه خفة فيه وطيش منه وليس له مسكة الصميم ووفور المستقيم ومنه قوله :

وكانت لقوة لاقت قبيصا

واللقوة الناقة السريعة اللقاح وذلك انها اسرعت الى ماء الفحل فقبلته ولم تنب عنه نبو العاقر .

واما « ك ل م » فهذه ايضا حالها وذلك انها حيث تقلبت فمعناها الدلالة على القوة والشدة والمستعمل منها اصول خمسة وهي : ك ل م ، ك م ل ، ل ك م ، م ك ل ، م ل ك واهملت منه ل م ك فلم تات في ثبت .

فمن ذلك الاصل الاول «ك ل م» منه الكلم للجرح وذلك للشدة التي فيه وقالوا في قوله تعالى: «دابة من الارض تكلمهم» قولين احدهما من الكلام والآخر من الكلام (بضم الكاف) اي تجرحهم وتاكلهم وقالوا : الكلام (بضم الكاف) ما غلظ من الارض وذلك لشدته وقوته ، وقالوا رجل كليم اي مجروح وجريم قال :

عليها الشيخ كالاسد الكليم

الثاني : « ك م ل » من ذلك كمل الشيء وكمل فهو كامل وكميل وعليه بقية التصرف والتقاؤهما : ان الشيء اذا تم وكمل كان حينئذ اقوى واشد منه اذا كان ناقصا غير كامل .

الثالث : « ل ك م » : منه اللكم اذا وجات الرجل ونحوه ولا شك في شدة ما هذه سبيله انشد الاصمعي :

كان صوت جرهما تساجل
هاتيك هاتا حتنى (2) تكابل

لدم العجى تلكمها الجنادل

(2) حتنى : اي مستوية

فالحكمة : كلمة ثقافية جليلة وهي كلمة عصامية نشأت وارتفعت من اصل متواضع اصلها من اربطة الدواب ، ان الحكمة جاءت من « الحكمة ــ وزان السمكة ــ وهي جزء من لجام الفرس : الجزء المحيط بالحنك من اللجام قالوا ــ العرب الاقدمون « حكمت الفرس واحكمته » ــ من باب ضربته وادبته بمعنى وضعت الحكمة في فمه ، ووضعك الحكمة في فم الفرس يعني سيطرتك عليه ، ومن هنا صار «الاحكام» وزان الاحسان يعني التوثيق والاتقان ، وصار «الحكم» وزان اللطف يعني السيطرة ، و«الحاكم» يعني المسيطر والامر والسلطان ، ثم اشتق من هذه المادة «التحكم» وهو تكلف الحكم او التعسف فيه وبعد ان ثبت هذا المعنى للحاكم اشتقوا منه « المحاكمة » فقالوا : «حاكمت الرجل» بمعنى خاصمته الى الحاكم ، و«تحاكم الرجلان» اليه بمعنى تخاصما اليه « فحكم بينهما » اي اصدر حكمه فيهما ، ومن هنا صار «الحكم» يعني القضاء اي الفصل بين «المتحاكمين» ايضا ومن هنا اشتقت «المحكمة» وهي دار «الحكم» او دار «المحاكمة» او دار «التحاكم او الاحتكام» ، وصار الحاكم يعني القاضي وهكذا اصبح للحاكم معنيان : احدهما : الامر المسيطر ، والثاني القاضي والقاضي غير القاضي الشرعي ، يسمى في العراق «الحاكم» والجمع «الحكام» وبعد ان اخذت الكلمة معنى القضاء اصبح من السهل اشتقاق «الحكم» ــ وزان القلم والتحكيم منها ، كذلك اصبح للتحكيم نفس المعنيين اي التسليط وطلب الراي فقالوا مثلا : حكم الرجل عاطفته او عقله في المسألة بمعنى سلط عاطفته عليها او عرضها على عقله للوصول الى راي فيها ، وقالوا : حكمناه في الخلاف بمعنى طلبنا حكمه فيه او جعلناه حكما فيه واستعمل عرب الجاهلية (الحكومة) بمعنى طلبنا حكمه فيه او جعلناه حكما فيه واستعمل عرب الجاهلية (الحكومة) بمعنى : « حكم الحكم » فقال شاعرهم :

ما انت بالحكم الترضى حكومته

ولكننا لا نستعمل «الحكومة» الآن الا بمعناها السياسي المعروف .

ولما كان الناس انما «يحتكمون» الى ذي عقل وفطنة فقد اصطبغ «الحكم» وزان الشكر ــ بهاتين الخصلتين ، اي العقل والفطنة بالاضافة الى معنييه السابقين الامرة والقضاء وقد جاء في القرءان : « وءاتيناه الحكم صبيا » اي ءاتيناه الحكمة

ومن الحكم بمعنى الحكمة اشتقوا « الحكيم » مثل اشتقاق الطبيب من الطب واللطيف من اللطف ، والنبيل من النبل وبسبب ازدحام المعاني على كلمة «الحكم» اختصت لفظة الحكيم بمعنى الحكمة وبقيت « الحاكم » تعني الامر او القاضي ولا تعني الحكيم خلافا للامر والامير والفاضل والفضيل والجاهل والجهول التي تشترك كل واحدة منها في معنى صنوها .

وقد كثر استعمال صيغة « الحكمة » لمعنى الحصافة والفطنة لانها ابين من الغرض من لفظة « الحكم » المزدوجة المعنى ، التي كانت ما تزال تستعمل في كلا المعنيين عند ظهور الاسلام وهكذا زال معنى الحصافة من الحكم والحصيف من الحاكم بدافع من الرغبة في اجتناب اللبس فتخصص معناها في التسلط والقضاء كما زال معنى الامرة من «الحكمة» و«الحكيم» فاختص معناها بالحصافة ولما كانت المحاكمة تتطلب مناقشة القضايا وتمحيصها ، فقد صارت هذه الكلمة تعني بالاضافة الى ما تقدم نفاذ الفكر وسداد المنطق فقالوا : « فلان قوي المحاكمة » اي ثاقب البصيرة في تمحيص المسائل العقلية دون ان يكون للامر علاقة بالقضاء بين المتحاكمين من الناس .

وفي العهد الاسلامي اطلقت « الحكمة » على الفلسفة وما هو بسبيلها من العقلانيات ثم اطلقت « الحكمة » على الطب وسمي الطبيب حكيما وظاهر ان سبب ذلك هو ان الكثيرين من « الحكماء » ــ اي الفلاسفة زاولوا الطب على ذلك العهد مثل الكندي والخيام وغيرهما .

ولا باس ان نورد هنا مثلا كان شائعا في العراق. يوم كان الطبيب يسمى حكيما هو قولهم : « لا سلط الله عليك حاكما ولا حكيما » ولا زال يستعمل في صعيد مصر .

وهكذا تعددت مناحي تطور هذه الكلمة فصار لها نشاطها الخلاق في ميادين السياسة والادارة والقضاء والفلسفة والطب بالاضافة الى معناها الثقافي العام .

هذه هي الحياة في اللغة العربية حياة جعلتها اكثر مرونة من غيرها من اللغات فانت ترى انها اكثر

اللغات قبولا للاشتقاق ، وجلي ان طريقة العربية في توليد الالفاظ بعضها من بعض جعلت من اللغة جسما حيا تتوالد اجزاؤه ، ويتصل بعضها ببعض بأواصر قوية واضحة وهذا الارتباط بين الفاظ العربية الذى يقوم على ثبات عناصر اصيلة خصيصة عظيمة تسمح لنا بالقول بأن ارتباطها حيوي وان طريقتها توليدية .

فالعربية بحيويتها المدهشة لم تعجز ولم تضق بكل ما ادركه الانسان من علم وثقفه من صناعة ، والعربية لغة القرءان الكريم ، القرءان الذى حفظها رغم ما مر بها من عصور الركود والجمود وما فتئت في ظل القرءان تفيض بالقوة والانطلاق .

(للحديث بقية)

المراجع

(1) الخصائص لابن جنى طبعة الفجالة بمصر سنة 1913 م .
(2) الكامل للمبرد . القاهرة سنة 1956 .
(3) الطراز لليمني الجزء الاول .
(4) عيون الاخبار لابن قتيبة ـ القاهرة .
(5) ادبيات اللغة العربية طبعة 1909 .
(6) الفلسفة اللغوية . جورجي زيدان .
(7) مقدمة ابن خلدون طبع كتاب التحرير سنة 1966 القاهرة .
(8) فلسفة اللغة العربية للدكتور عثمان امين .
(9) تاريخ آداب اللغة العربية جورجي زيدان الجزء الاول .
(10) احياء النحو ابراهيم مصطفى 1926 م القاهرة .
(11) المزهر للسيوطي طبعة دار احياء الكتب العربية
(12) فقه اللغة للثعالبي المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة .
(13) فقه اللغة لمحمد المبارك . دمشق 1960 م
(14) مجلة الاقلام المجلد الاول . العراق .
(15) مجلة اللسان العربي . الرباط المغرب . « جميع الاعداد الاربعة الاولى » .